ما بين النظرية الاجتماعية في المجتمعات الغربية والعربية من اتصال وانفصال

د.أحمد البلالي

جامعة تونس– تونس

الملخص:

تميزت العلوم الاجتماعية بالتأثر بالأفكار السياسية والأخلاقية والإيديولوجية. لكن في المجتمعات العربية نلاحظ انتشار للتبعية ومحاكاة النموذج الأوروبي في النظرية، فكانت علاقتها مبنية على التبعية للآخر الغربي رغم أن الحقيقة القائمة في هذه العلوم تقرّأن ابن خلدون هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع الذي سماه "بعلم العمران البشري". وقد درس نشوء المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب التغيير من خلال إبرازه أنها تتطوّرمن البسيط البدائي إلى أشكال أكثر تعقيدامن نشوء المجتمعات الإنسانية وتطورها باعتبار أن الصناعة هي السبب الأساسي في الازدهار الحضاري. فالنظرية هي تفسير جانب من الحياة من خلال الاعتناء بالبنى والوظائف وتمحيص الأخبار والوقائع. ولكن المجتمعات العربية تفتقد إلى دراسة النظرية الاجتماعية القومية بنظرية عربية خالصة تنطلق من مستخلصات التجربة التاريخية الحضارية مثل ابن خلدون وتجسد الشخصيات العقائدية والثقافية للأمة العربية من خلال دراسة تحليلية نقدية للنظرية الغربية إضافة إلى التفكير العقلاني تكون غايته تحقيق التنمية الشاملة وقراءة الماضي بعقل الحاضر لغاية مقاومة مظاهر التخلف والتبعية.

Abstract :

Social science has been influenced by political, moral and ideological ideas. However, in arab communities we notice the spread of dependence and simulation of the European model with regard to the social theory. For instance, Ibn Kholdoun was the founder of Sociology which he used to call" the Science of Human Urbanism". He studied thr emergence and evolution of human societies and the reasons behind the change. Ibenkholdoun highlighted that the communities did change from primitive simple to more complex forms of human societies and their evolution as the industry was the basis for the development of civilization. The theary is the interpretation side of life by taking care of the structures and function and scrutiny of news and facts, but Arab societies lacked studying the socio-national theory so as to obtain their pure arab theory emanating from cultural and historical experience extracts such as Ibn khaldoun and emboby the ideological and cultural figures of the Arab nation through analytical cirtical study to the Western theory. In addition, arab communities should depend on the rational thinking hich enables them achieve comprehensive development. Furthemore, it is essential to read the past with a present mind in order to combat the manifestations of underdevelopment and dependency.

مقدمة:

فحتّى نبني نظرية عربية للعلوم الاجتماعية يقتضي الإطار الأيديولوجي لهذه النظرية صوغ فلسفة اجتماعية ساعية نحو المستقبل، أكثر من اللجوء إلى جذب الواقع العربي إلى الماضي ويتطلب هذا جرأة فكرية نادرة. لم يعد الفكر القومي لها بعد يجب التجديد في الأفكار من خلال الرواسب الفكرية المتوارثة والجامد التي تدعم الحاجة إلى تنظير عربي جديد يقرأ الماضي بعقل الحاضر وفكره، ويفسر الحاضر برؤى مستقبله مسعاه التغيير نحو الأفضل، يجب أن يكون علما بنائيا شاملا جماعيا في التوجيه، ديناميا وجدليا في التحليل والتفسيروساعيا في الأخير إلى إحداث تغيير اجتماعي مقصود. كما أنه لم يعد مطلوبا أو مقبولا الدراسة لمجرد الدراسة والبحث في ذاتها. ومن ثم إذ لم تكن غاية العلم الوصول بالمجتمع نحو الأفضل والأحسن عدّ مضيعة للوقت والجهد فعلم الاجتماع يجب أن يكون للمجتمع ومفهوم المجتمع في شموليته لا يعني انخراط نحو الخاصة والطارئ والجزئي وإنما العكس هو الصحيح.

كما أن تمييز علم الاجتماع لا يعني عزله أو تعاليه على العلوم الاجتماعية الأخرى وإنما يعني إبراز طابعه ودوره اللذين يمكن توظيفهما كأساس للتعاون مع العلوم الإنسانية الأخرى من أجل فهم أشمل للإنسان.

إن مجتمعنا بكل المعايير الكيفية الجوهرية الحقيقية يعد متخلفا وبالتّالي لابدّ أن يسعى علم الاجتماع نحو الإسهام في تنميته وذلك بالوقوف على محدّداته وشكله ومضمونه والكشف عنالمعوقات الجوهرية له ونتائجه الأساسية.

إن هذه التنمية الشاملة لا يمكن أن نحققها فرادي وبالتالي فالوحدة العربية مصير لثقل المجتمع العربي ثقلة كيفية وهذا يعني أن لعلم الاجتماع دورا في دراسة معوقات هذه الوحدة وأيضا مسيرات تحقيقها وتدعيمها فكرا وموقفا وعملا. "فالمجتمع العربي لا يعيش منعزلا في هذا الكون لأن ثمة علاقات دولية تضغط عليه وتؤثر فيه بطرق مباشرة"(1) من ثم فإن التحليل السوسيولوجي هو أهم المجالات التي تساهم في تطوير العلوم الاجتماعية.

1-النظرية العربية والغربية

1-1 مجالات الاتصال

سنتطرق في هذا المجال إلى عالم من الوطن العربي وهو ابن خلدون وأجست كونت من العالم الغربي فرنسا بالتحديد. لذلك تميزت أفكار ابن خلدون بانتشارها عالميا فقد رأى أن كتب المؤرخين من قبله قد اشتملت على كثير من الأخبار غير الصحيحة، وأنه من الواجب أن يتخلص التاريخ من هذه الطائفة من الأخبار حتى تعطي صورة صادقة لأحوال المجتمعات، وحتى لا تختلط في أذهان الناس الحقائق الصادقة بالأمور الملفقة الزائفة، مثلما ذهب إلى ذلك أوجست كونت الذي يعتبر من المفكرين المساهمين في تأسيس علم الاجتماع. فاعتبر أن بعض الآراء والعقائد والأفكار التي تربط الإنسان

بالمجتمع في حالة فوضى، فإن هذه الفوضى لا ترجع في نظر كونت إلى مجرد أسباب سياسية، بل إلى نوع من الاضطراب في المبادئ العقلية، أي إلى عدم وجود مبادئ مشتركة بين جميع العقول، ومواجهة مشكلات المجتمع لا تتطلب تغيير الأساس الاقتصادي للمجتمع، وإنما تغيير مناهج الفكر ويأتي الإصلاح العلمي والقضاء على الفوضى العقلية بإنشاء علم يدرس ظواهر المجتمع دراسة علمية وصفية. والأسباب التي دعت ابن خلدون إلى هذه الدراسة أسباب واقعية صحيحة فعلم التاريخ كان إلى عهده مملوءا بالأخطاء، ومعظم هذه الأخطاء كان منشؤها الجهل بالقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع. أما الأسباب التي دعت أوجست كونت إلى هذه الدراسة فقد كانت أسبابا خيالية استمدها من فلسفته ومن فهمه الخاص لتطوير الفكر الإنساني ولم يستمدها من الواقع ولا من الملاحظة الوضعية لحقائق الأمور.إضافة إلى ذلك أن معظم النظريات تتفق بأن المجتمع يعيش ديناميكية وتغيير متواصل.

2-1 مجال الانفصال

رغم اتفاق ثلاثة مفكرين أوجست كونت و كارل ماركس وابن خلدون على أن المجتمعات الإنسانية في حراك دائم وتطور مستمر إلى أنهم اختلفوا في العامل المؤدي إلى إحداث التطور والتغير فقد اعتبر كونت أن التطور العقلي هو أسس التغيير واختلف بذلك مع ماركس وابن خلدون اللّذانرأيا أن العامل المادي أساس التغيير إلا أن الأسبقية بطرح فكرة تطور وتغيير لابن خلدون.

إن المجتمعات العربية تعيش تطورّا وتأثّرا بالعولمة الغربية لذلك أسس الغرب نظرياته الاجتماعية على أساس التباينات بين مجالين مختلفين من حيث التقدم والتنمية كما قال سمير أمين "لقد ظهرت مفاهيم التنمية والتخلف كمفاهيم معاصرة إثر الحرب العالمية الثانية وخاصة إثر إحراز العديد من بلدان إفريقيا وآسيا على الاستقلال في الخمسينات والسّتينات، وقد ظهرت هذه المفاهيم في المؤسسات الدولية"(2) وانتشرت بذلك تنظيرات الليبرالية الكلاسيكيّة التطورّية الجديدة، الاتجاه الثقافي والوظيفي، ومن ناحية ثانية التّنظيرات التي تعتمد مفهوما لتّبعية، فكانت العالم الغربي يؤسس نظريات في مجتمعاتها ويحاول نقلها إلى المجتمعات العربية وهو ما يساهم في التأثير بهذه المناهج التي يمكن أن تؤثر على الهوية في الوطن العربي وخاصة الهوية العربية الإسلامية من خلال انتشار لعديد من المفكرين وعلماء العرب للأفكار تناهض الفكر العربي المحافظ وتنعته بالرجعية والتخلف لذلك" إن العالم الثالث يقف الآن أمام أوروبا كتلة عظيمة تريد أن تحاول حل المشكلات التي لم تستطيع أوروبا أن تأتي لها بحلول ولكن يجب علينا أن نتحدث عن وفرة الإنتاج، لأن شبيبة البلدان المتخلفة شبيبة عاطلة عن العمل في كثير الأحيان فيجب شغلها بالعمل أولا وقبل كل شئ"(3)، إضافة إلى الانفصال في المجال الثقافي من خلال غياب الديمقراطية في معظم الأقطاب العربية وهو ما يساعد على تكريس ثقافة مبنية على العروشيّة والمحسوبية.

كما أنه من اللافت للانتباه أن المجتمعات العربية لا تقدس العمل" فقد هيمنت على البلاد التونسية عقليّة تحقير العمل المنتج التي استمرت قرونا طوالا جرّاء التفقير وعدم احترام الجهد والإنتاج وتردّي أوضاع المهنيّين والحرفيّين والمأجورين ممّا جعل عمليا من إفريقية بيئة طاردة للعمل"(4)، فمن الناحية النفسية والانثروبولوجية الشّخصية التونسية مثلا "تكاد تكون غير حريصة على العمل بل هي تعتبره حالة اضطرارية وربّما إكراهية. الأمر الذي قد يفسّر ولو جزئيّا، هذا الحرص على اكتساب موقع في صلب هيكلة الحكومى فالمجتمعات العربية في بناء النظرية ليست بحاجة فقط إلى نظام تربوي وتعليمي يطوّر البنيات الذهنية وينهض بالعقل العربي بل نرها بحاجة أيضا إلى نظام قيمي يتمّ تحديده وتكريسه سياسيا وثقافيا"(5). لذلك تختلف المجتمعات العربية على الغربية من حيث المجال الثقافي من ناحية ومن حيث المجال الاقتصادي من ناحية ثانية من خلال غياب تقديس العمل ولعل المستشرق هاملتون جيب يكون أسبق إلى الحديث عن الاستغراب من كثير من الباحثين المعاصرين في العالم الإسلامي. يقول هذا المستشرق:"والتعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تدعو إلى الاستغراب. ولسنا نستطيع الوقوف على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقدار دراسته للفكر الغربي وللمبادئ والنظم الغربية، ولكن هذا التعليم ذو أنواع كثيرة تقوم بها جهات متعددة، وبالطبع لابد أن هناك بالفعل قليلا من التعليم على الأسلوب الأوربي في المدرسة، وفي الكلية الفنية وفي الجامعة، وعلى هذا التعليم يتوقف كل ماعداه"(6).ولقد صدق المستشرق جيب فيما ذهب إليه من كون التعليم "أكبر العوامل الصحيحة التي تدعو إلى الاستغراب.إن مناهج العلوم الإنسانية في صورتها الحالية هي في الحقيقة إنتاج غربي مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ الثقافي للغرب، ويعبر عن خصوصياته ومشكلاته الفكرية"(7). وقد كان تسرّب هذه المناهج إلى جامعات ومراكز البحث العلمي في العالم الإسلامي أمرا تفرضه الحاجة نتيجة الفراغ العلمي، مع شدة الحاجة إلى التجديد. فكان لابد من استيراد العلوم الغربية أو استيراد مناهجها الجاهزة بدون تعديل أو تغيير.وهكذا أصبحت العلوم الاجتماعية في العالم " التابع " تعاني أزمة حادة، ناتجة أساسا عن التبعية النظرية للحقل المعرفي الغربي، وذلك على المستويين النظري والمنهجي. ومن مظاهر هذه التبعية، التقليد والنسخ الأعمى لمناهج المعرفة الغربية، وإعادة إنتاج فكرها، أو مجرد استهلاكه دون أدنى تساؤل أو مراجعة نقدية. "فعندما تأسست العلوم الاجتماعية في جامعات البلدان الإسلامية،لم يحاول الرواد الأوائل استعمال الحس النقدي والمنطق العملي، وإنما نقلوا مناهج الغرب كما تعلموها. إن إشكالية المنهج هي إشكالية النشأة والتأسيس، كما أن تكوين العلوم الاجتماعية عندنا حصل خارج السياق التاريخي والمجتمعي. ولذلك فهي لا تعبر عن عقلية المسلمين ولا عن واقعهم، كما أنها لا تعكس صورة التطور الحقيقي للمجتمعات الإسلامية، بل تعبر مضمونا ومنهجا عن تجربة المجتمعات الأوربية"(8).إن المفاهيم والمصطلحات الاجتماعية والنفسية، التي غزت الثقافة الإسلامية، أحدثت ارتباكا وحيرة في عقول المسلمين، كما ألحقت الضرر ببعض ثوابت التراث والعقيدة.

كما أنه في دراسة النظرية القومية العربية هناك اختلاف من حيث المعتقدات والعادات والتقاليد على الشعوب الغربية، لذلك تميزت الشعوب العربية بانتشار العديد من الأفكار الرافضة لثقافة الغربية التي أثرت على حياة الشعوب النامية خاصة منخلالهجرة الريفيين وبسيطرة المدينة على الحياة الاقتصادية" وغياب سياسة تنموية للريف مندمجة ومتوازنة. واختلال هيكلّيّ دفع بأعداد هائلة من الريفيين إلى النزوح إلى المدن مما جعلها تعيش حالة من التوتر الداخلي والعجز المتواصل عن استيعاب هذه الطاقات الهائلة من الريفيين النازحين إلى المراكز الحضريّة المتضخمة والصناعة المستحدثة" (9)، "فالأرض هي كرامة أي شعب من الشعوب، وتأصّله الحضاري ورمزه الحي الدائم. وبالتالي فإن هدم الاستعمار للبيئة الزراعية هدم لشخصية المجتمع العربي وهويته الثقافية وهذا التحول التاريخي كان له الأثر السلبي لأنه أرسى تقاليد النزوح الريفي وعمق فكرة قديمة كانت موجودة وهي سيطرة المدينة على الريف(10)، لذلك تختلف المجتمعات العربية على الغربية من حيث البنية الاقتصادية من خلال اعتماد دول الخليج على النفط واعتماد تونس والمغرب على السياحة كأهم مورد لتطوير الاقتصاد، لذلك أثرت الحياة الاقتصادية والاغتراب والعولمة على حياة العرب وتراجع العمل الفلاحي وانتشار تقليد الغرب ولكن هذا لا يخفي علينا العلاقة الانفصالية بين الشعوب العربية والغربية من خلال احترام العقيدة وأسس الدين الإسلامي. كما تميزت النظرية القومية العربية في مجال العلوم الاجتماعية بدراسة الفكر العربي وأنثروبولوجي العقائدية، إضافة إلى تشابه العادات والتقاليد من حيث اللباس والأكل في دول المغرب العربي خاصة.كما قال ادوارد سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية" إن التحرر هو وعي الذات، لا انغلاق باب في وجه التواصل(11). لذلك تمثل النظرية العربية مجالا لدراسة الواقع العربي بعيدا على الاستغراب وإبراز السيطرة الغربية وذلك قصد تطوير الاقتصاد العربي ودراسة موضوعية للثقافة العربية إضافة إلى طرح عديد من الرؤى لتجاوز الدكتاتورية وتحقيق الديمقراطية في الشعوب العربية. لذلك يجب قيام نظرية نابعة من الفكر العربي ومن عادات وتقاليد الثقافة العربية لغاية مقاومة مظاهر التخلف والتبعية.

2- النظرية العربية ومقاومة مظاهر التخلف والتبعية

بالرغم من أن ميدان مناهج العلوم الاجتماعية في الغرب قد شهد في العقود الأخيرة ظهور تيارات نقدية وتوجهات تمردية تستهدف المناهج الكلاسيكية، وتقترح مناهج جديدة تواكب التطورات الأخيرة للمجتمعات الغربية، فإن كتابنا وباحثينا وأساتذتنا الجامعيين مازالوا يدورون في فلك تلك المناهج الكلاسيكية المتجاوزة، بل يستميتون في الدفاع عنها. وينتج عن هذا الموقف اللامنطقي والاستغرابي، تخلف واضح ومذهل عن" الإسهام في صياغة نهج الدور الحضاري للعلوم الاجتماعية، وهو دور تتحقق ماهيته بصورة دقيقة عندما يوضع في إطاره المجتمعي، ذلك الإطار الذي يستمد مقوماته من خصوصية المجتمع، وتفرد بنائه وتميزه وهويته الاجتماعية والسياسية، فضلا عن تميزه الديني والثقافي".(12)

2 -1أهمية ابن خلدون

تناول ابن خلدون نشوء المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب التغير وأوجهه، فقد عزى التغير الاجتماعي في غالبه إلى تغير وتباين في سبل العيش، وجعل مراحل التطور بين نموذجين أساسيين هما البداوة والحضر، فأظهر خصائص كل مرحلة وخاصة من حيث الروابط (العصبية) وأوجه الحياة وخصائص مؤسسات كل مرحلة، لقد حاول ابن خلدون أن يبين أن المجتمعات الإنسانية تتبدل من البسيط البدائي إلى أشكال أكثر تعقيدا، وبهذا تعتبر هذه المحاولات الأولى لوضع مخطط لنظرية اجتماعية لتفسير نشوء المجتمعات الإنسانية وتطورها. وحاول أوجست كونت من بعده تفسير التطور التاريخي للمجتمعات وقد وضع ما يعرف بقانون المراحل الثلاثة: المرحلة الأولى: تعنى بتفسير وجود الظاهرة بقوة غيبية هي مسئولة عن وجودها، أما المرحلة الثانية الميتافيزيقية فتتصف بالتجديد غير المؤسس على أساس الواقع وفي الغالب بافتراض قوي غير موجودة في تكوينها، وتمثل المرحلة الثالثة الوضعية هي المرحلة العلمية التي نلتزم فيها بدراسة عناصر الظاهرة وعلاقات تلك العناصر أي تناول الموضوع كما هو في الواقع.

مثلما ذهب إلى ذلك ابن خلدون الذي دعى إلى ضرورة إعطاء قيمة لصناعة وهي ما تتماشى مع الفكر الغربي إذ أن الصناعة في الفكر السياسي والاجتماعي والفرنسي خاصة هي شرط كل التحولات النوعية والفكرية والاجتماعية 'فالعقلانية كما عبر عنها ماكس فيبر هي قيمة بيروقراطية وصناعة قبل كل شيء فالمجتمع الذي لا يملك بيروقراطية وأجنية صناعية لا يمكن ولا يحضى له يمتلك العقلانية(13).

كما أبرز ذلك سان سيومون في مقارنة بين الإنتاج والكسل وأمة كسولة وأمة عاملة ويتسائل في إطار المقارنة الوضعية: هل يمكن أن يحصل تعايش بين الأمتين؟.

فبالرغم من جلاء الاستعمار عن الوطن العربي إلا فلسطين، فمازالت صورة التغلغل الاستعماري متشابكة متداخلة، تتكاثر لتشمل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتدعم باستمرار صورة التبعية للعالم الخارجي التي يخيل للمرأ أنها تتكشف مع كل مخترع جديد.

يعرف ابن خلدون العصبية بأنها " النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبة أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعة في البشر(13). وعلى مستوى التأصيل الإيتيمولوجي لمصطلح نعرة، نلاحظ أن هذه الكلمة لا معنى سياسي لها قبل ابن خلدون،"فيكتب اللغة ففي لسان العرب مثلا نعر القوم أي هاجوا واجتمعوا، ونعروا في أمر أي نهضوا وسعوا(14).

والعصبية لدى ابن خلدون ليست عصبية قبلية فقط، مرتبطة بالانتماء إلى القبيلة أو العشيرة أو النسب، وإنما هي خاصّة، نعرة تتمثل في النهوض والسعي والاجتماع وحتى الهيجان بالمفهوم اللغوي للكلمة لشيء ما يربط بين الأفراد.

"والقومية العربية أيضا هي شكل من أشكال العصبيّة القوية، وهناك من يرى أن الفكر الخلدوني هو النواة الحقيقية للقومية العربية التي شهدتها ذروتها في ستينات القرن الماضي(15) فالعصبية حسب ابن خلدون هي كل أمر يجتمع عليه(16).

لعل من أسباب مراهنة الباحثين على فشل التجربة الديمقراطية في البلدان العربية هو جنوح العصبية في هذه الأقطار إلى التعاظم، وعدم مقدرتها على التعايش مع عصبية أخرى في إطار السلطة والعصبية هي مصدر السلطة، هي العامل الأساسي في بناء الدولة.

كان ابن خلدون أول من استعمل التصنيف الثنائي للمجتمع، حيث قام بتقسيمه إلى مجتمع بدوي ومجتمع حضري وقد تبعه علماء الاجتماع الغربيون في هذا التصنيف الثنائي مثل Redfield في تصنيفه مجتمع ريفي ومجتمع حضري التي تساعد على فهم الظواهر الاجتماعية وهو ما نجده منتشر في البلاد التونسية بعد الثورة مثل إسلامي وعلماني، رجعي وحداثي "فهذا التقسيم من شأنه أن يولد شكلا من أشكال العصبية التي يمكن للسياسي أن يستثمرها، فالعصبية في علاقتها بالدولة هي التي تحدد في نظر ابن خلدون شكل العمران، وتجسد حركة التاريخ(17) ولا يمكن للشخص أو الفصيل السياسي في تونس أو العالم العربي بشكل عام أن ينجح في الحشد الجماهيري، وفي التأثير على المجتمع والتاريخ خارج مفهوم العصبية.

فأهم الأسس التي يجب القيام بها لكي تنهض العالم العربي من حيث دراسة والقيام بنظرية تدرس الإنسان بعاداتها في الماضي بروح الحاضر وذلك بغية التخلص من التبعية وبتضخيم الآخر الغربي المختلف، وفي هذا الإطار يستنقص ابن خلدون من قيمة العرب ويحيط من مكانتهم إلى درجة الذم في معظم الأحيان، بحيث أنه أفرد سبعة فصول في وصف العرب أهما الفصل الذي اعتبر فيه أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك، وفصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع. وعندما نلاحظ الأوصاف التي أعطاها ابن خلدون للعرب منذ ستة قرون، والأوصاف التي نلحظها الآن في الإسلاميين المتشددين، أو ما يسمى بالدواعش، نلاحظ تطابقا كبيرا، فهم إذا تغلبوا على وطن أسرع إليه الخراب.

لذلك "أفرد ابن خلدون فصلا كاملا في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها(18). ونلاحظ هنا الدقة التامة في تعداد صنوف الاقتداء لدى المغلوب، حيث يذكر "الشعار" أولا، ولنا أن نلاحظ أن الشعارات التي ترفع ما بعد الثورة هي شعارات غربية بالأساس، كمفهوم ديمقراطية، أو تعددية، أو مفهوم مجتمع مدني الذي يمثل مفهوما غربيا يعبر عن الثقافة السياسية والنظام السياسي السائدين في الغرب"(19).

هذا الاضمحلال والانهيار للحضارة العربية وذوبانها التدريجي في الحضارة الغربية الغالبة، قد استشعره ابن خلدون منذ ستة قرون، فقد استبق ابن خلدون حالة التخلف والتبعية الثقافية والنفسية

والاقتصادية التي تعيشها الأمة العربية اليوم، وقدم أطروحات تفصل أسباب التقدم والانتصار فقدم في أطروحاته حركة التاريخ من منظوره من جانبها السلبي والايجابي. ونحن نلاحظ كما يلاحظ الكثير من الباحثين أن المقولات التحليلية الخلدونية لا تزال صالحة لتحليل المجتمعات المغربية والعربية، وهذا قد يكون دالا على أن المجتمعات العربية لم تتطور كثيرا على المستوى الماكروسوسيولوجي عما كانت عليه منذ ستة قرون، وهي مجتمعات لا تزال تحافظ على المقومات الاجتماعية التي كانت تحكمها منذ قرون.

2-2- مظاهرالتخلف والتبعية

تميزت الشعوب العربية بالحفاظ على العصبية الدينية إلا أنها رغم اختلاف المجتمع العربي على الغربي إلا أن هناك استغراب وتبعية للفكر الأوروبي رغم أن الحقيقة العلمية حسب الباحث صالح المازقي "تثبت وجود قصور للنظريات السوسيولوجية الغربية الحديثة في تحليل الثورات وعقم إسقاطها على الثورة التونسية، وأقرب السبل لدرس الثورة التونسية تتمثل في نظرية ابن خلدون في العصبية، بوصفها محرك الثورات وتجديد السلطان والإحاطة بالدول وإعادة بنائها(20).

إنَّ مظاهر التخلف في البلدان المعنية كثيرة ومتداخلة ومتشعِّبة من جهة، وعلى درجات متفاوتة من الأهمية من جهة أخرى، ذلك أن بعضها يتعلق بالبناء التحتي (تخلف القوى المنتجة وبالتالي علاقات الإنتاج)، وبعضها يتعلق بالبناء الفوقي (أشكال الإدراك والوعي الاجتماعي)، بعضها قطري وبعضها قومي، بعضها يغلب عليه الطابع الاقتصادي وبعضها الآخر الطابع الاجتماعي والثقافي، بعضها قديم عام يتعلق بكافة جوانب الحياة الاجتماعية، وبعضها يحتاج علاجه إلى فترة تاريخية طويلة حتى في حال توفر كل من النية والإرادة.

إننا نتفق هنا مع سمير أمين وشارل بتلهايم في ضرورة عدم التورط في سرد مطول وعقيم لمظاهر التخلف في البلدان النامية، حيث يمكن أن يؤدي اختلاط السبب مع النتيجة، والكم مع الكيف، والمهم مع العارض، الداخل مع الخارج إلى الابتعاد عن جوهر القضية. هذا مع العلم أن الكاتب يرجح استخدام تسمية البلدان النامية، بدل البلدان المتخلفة، ذلك أن تعبير البلدان النامية ينطوي بحد ذاته على بعد جدلي يشير إلى كل من التنمية والتخلف في آن واحد.

تخلف القوى المنتجة، ولا سيما، عنصرها الأساسي "الإنسان" وهو أمر يجد تجسيده الملموس في تلك العلاقة غير المتكافئة بين الإنسان والبيئة الطبيعية التي يعيش فيها ومنها. لقد جاء في الأمثال العربية الدارجة، أنَّ "أهل مكة أدرى بشعابها" ونحن إذ نؤكد هذا القول, إنَّما نضيف إليه، ولكن غير أهل مكة(الغرب) هم أدرى من أهل مكة بما هو في باطن هذه الشعاب، بل إنَّهم هم من اكتشف النفط واستخرجه ونهبه ووظفه في إدارة عجلة صناعته وأعاده إلينا سلعاً جاهزة للاستعمال.

تخلف العلاقات الاجتماعية، والذي يتجسد في استمرار العلاقات الإقطاعية وشبه الإقطاعية والقبلية والطائفية، وفي حالة التفكك الاجتماعي "وضعف التلاحم الوطني والموقف الرجعي من المرأة

وغلبة العنصر الفلاَّحي على التركيب الاجتماعي للسكان. إضافة إلى تخلف البنية الثقافية الذي يعتبر هنا سببا ونتيجة للانتشار الواسع للاميّة الأبجدية والوظيفية ، وما يعنيه ذلك من تخلف حضاري وانقطاع عن روح العصر وتبعية فكرية وثقافية وتعصب أعمى قبلي أو قومي أو ديني بنتيجة هذه العزلة الفكرية عن الثقافات الأخرى". (21)

خاتمة

تمثل النظرية القومية العربية أحد أهم المطالب التي يجب أن يسعى الباحثين العرب إلى إعطائها الأهمية من خلال دراسة لأهم مظاهر الاتصال والانفصال بين النظرية الغربية والعربية إضافة إلى الاستفادة من أفكار ابن خلدون وخاصة من حيث تطور المجتمعات وظاهرة العصبية. لذلك يمكن لهذه النظرية أن تؤسس أسس لبوادر علم اجتماع يهتم بدراسة الثورات العربية أنثروبولوجيا واجتماعيا وسياسيا لغاية تنمية الأفكار ومقاومة مظاهر التخلف والتبعية ومحاولة الاهتمام بأهم قضايا المجتمع العربي خاصة التنمية الاقتصادية وضرورة الاعتماد على الصناعة للنهوض بالمجتمع. لذلك وجب مواصلة الإبداع العلمي التكنولوجي المعاصر بقيم عقائدية نابعة من قيمنا العربية والإسلامية. وتقديم النموذج العربي الإسلامي البديل للنماذج العالمية والمسوق لها اليوم من قبل المنظومات العالمية المهيمنة بالقوة على العالم، تقف بقوة وفخر وتميز واعتزاز أمام النماذج البشرية الأخرى التي تريد أن تكون سيادية على البشرية، بل بإمكان النموذج العربي الإسلامي أن يكون له الأستاذية على العالم مرة ثانية لما يحمله من قيم إنسانية غير عنصرية. تعكس واقع الحياة المعاصرة وتسهم في زيادة التنمية الشاملة، وتوسع إطار الحرية لأفراد المجتمع، وتعزز دور مؤسسات المجتمع المدني، وتهدف إلى تفعيل الحوار وإقناع الآخر بالاعتراف بما لدينا من مكون ثقافي وعقائدي قادر على مواجهة تحديات العصر مستقل وقابل للاستمرارية يقبل بالتعددية والرأي الآخر دون المساس بثوابتنا والتنازل عنها ودون الإضرار بالآخرين أو عدم الاعتراف بهم. وتحرر الأمة من التبعية توفير حرية التفكير والبحث العلمي، وإنشاء نظام تعليمي مختلف عن النظام الحالي في مادته وفلسفته، يعمل على إعادة تشكيل عقل الأمة وتحريرها من التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية. وتهدف لمواجهة تحديات الواقع البشري المعولم في الثقافات والمعلومات والأسواق بفلسفة ذاتية نابعة من عقيدته وقيمه. وتواكب التقدم الحضاري في محتواها العلمي وتستخدم كل مستجدات تكنولوجيا التعليم. قادرة على حل مشاكل المجتمع والعودة بالأمة إلى دور السيادة والقيادة للعالم.

*** قائمة المراجع :**

1-عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص199.

2-Amin(Samir),Développement économique etsociale, France,Paris,Encyclopaedia ,universalis- corpus6,1988,p .34.

3- فرانز فالون، معذبو الأرض، ص 120.

4-المنصف ونّاس، الشخصية التونسية محاولة في فهم الشّخصية العربيّة، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2011، ص288.

5- المنصف وناس، نفس المرجع، ص 134.

6-هاملتون جيب: "*وجهة الإسلام*" ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، المطبعة الإسلامية، القاهرة 1934، ص 18.

7-http ://www.charefab.com/ ?p=208 بتاريخ 20/07/2016

8-محمد أحمد بيومي: علم الاجتماع بين الوعي الإسلامي والوعي المغترب، دار المعرفة، الجامعية الإسكندرية، 1993، ص52.

9- المنصف وناس، الخطاب العربي الحدود والتناقضات، الدار التونسية للنشر،1992، ص151.

10- المنصف وناس، المرجع نفسه، ص188.

11- ادوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1998، ص19.

12-http ://www.charefab.com/ ?p=208 بتاريخ 20/07/2016

13- حجازي، النظرية الاجتماعية: الموجز في النظريات الاجتماعية التقليدية والمعاصرة، اليمن،أكرم Elebda3.net-gh-702-pdf.

-14ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2001، ص160.

15- ابن منظور، لسان العرب، ص 153.

16- محمد أحمد الزعبي، الفكر الاجتماعي الخلدوني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص14.

17- ابن خلدون، نفس المرجع، ص174.

18- محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1994، ص12.

19- ابن خلدون، المقدمة، نفس المرجع، ص184.

20- ابراهيم أبراش، علم الاجتماع السياسي، مقاربة ابستيمولوجية ودراسة تطبيقية على العالم العربي، 2011، ص93.

21- صالح المازقي، ثورة الكرامة، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2011، ص50.

22-http://www.ibn-rushd.org بتاريخ 23/07/2016